

وزارة المعارف العمومية

تفسير جزء تبارك

وهو الجزء التاسع والعشرين من الكتاب الكريم

تأليف العالم الجليل

الشيخ عبد القادر المغربي

نائب رئيس الجمع العلمي العربي بدمشق وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة

قام بتصحيحه و علق عليه بتكليف من وزارة المعارف المصرية

على محمد حسب الله

استاذ العلوم الشرعية المساعد بكلية دار العلوم (جامعة فؤاد الأول بالقاهرة)

جميع الحقوق محفوظة للوزارة

المطبعة الاميرية بالقاهرة

١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م

سورة المرسلات مكية

وهي خمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾

تقدم ذكر السبب الذي من أجله يقسم الله تعالى ببعض خلقه . ومن أساليب القسم المختلفة في القرآن هذا الأسلوب الذي افتتحت به هذه السورة .

ويشبهه القسم الذي افتتحت به سورة النازعات مذ قال تعالى : (والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا) أقسم تعالى بالكواكب تسرع في سيرها ، وتقطع مداراتها منتقلة من برج الى برج ، وتسبح في الأجواء سبحا حثيثا . ومنها كواكب تسبق غيرها بإتمام دورتها كالقمر والأرض ، وهذه السابقات يكون من أثرها تدبير بعض الأمور الكونية كمعرفة الحساب والفصول .

ويشبهه أيضا القسم الذي افتتحت به سورة العاديات مذ قال تعالى : (والعاديات ضبحا . فالموريات قدحا . فالمغيرات صبحا . فأترن به نقعا . فوسطن به جمعا) أقسم بخيل الجهاد تعدو فيسمع لنفسها زفير ، وتقدح الحصا بخوافرها وهي عادية فيتطاير منها الشر ، ثم تغير على العدو وقت الصباح فتثير إذ ذاك الغبار بشدة عدوها ، وحينئذ تفجأ جمع العدو وتتوسطه فتفرقه شذر مذر .

وقد أراد ابن دريد أن يتشبه بالقرآن في قسمه بالخيال في مقصورته المشهورة ، فأقسم أولا بالنياق تحمل الجحاج إلى بلد الله الحرام فقال :

أَلَيْسَ بِالْإِعْمَالِ يُرَجَّى بها النجاء بين أجواز الفلا

وبعد أن وصفها ووصفهم أقسم بالخيال تحمل الأبطال إلى ساحات القتال فقال :

بذلك أم بالخيّل تعدو المرطى ناشرة أكتادها قُب - الكلى
يحمل كل شمرى باسل شهم الجنان خائض غمر الوغى

أقسم الله بالكواكب في سورة النازعات تنبيها إلى ما في حركاتها ونظام سيرها في مداراتها من المنافع والمصالح ، وأنها إنما خلقت لأجل هذا ولم تخلق لتكون آلهة تتصرف في الأكوان كما يزعم عبدها من الصابئة وغيرهم ، مشيرا إلى ذلك بما وصفها به من الأوصاف التي لا تجتمع قط مع أوصاف الألوهة .

وأقسم بالخيّل في سورة العاديات تنبيها إلى فائدتها وما لها من حسن الأثر في خدمة البشر ، معظما شأنها في ذلك من حيث يبعث على اقتنائها ، والعناية برببيتها ، وتكثير سلها .

أما ما أقسم به في فاتحة هذه السورة - سورة المرسلات - فهو الرياح ، إذ ليست الكواكب ولا الخيل السلاح - بأبعد أثرا ، وأطيب نورا - منها في خدمة الخلق وتوفير مصالحهم ، وتيسير أسباب معاشهم .

على أن الثلاثة المذكورات - الخيل والرياح والكواكب - أخوات متماثلات ، في الحركة والنشاط وقطع المسافات : الخيل على سطح الغبراء ، والكواكب في فسيح الخضراء ، والرياح ما بينهما في أجواز الفضاء .

وليس المراد بالرياح المقدم بها مادة الهواء الجوى الذى يحيط بالكرة الأرضية ، فإن توقف حياة البشر على تلقف هذا الهواء واستنشاقه ظاهر لا يحتاج إلى قسم ولا إلى تنويه بالذكر . وإنما موضع الخفاء في فائدة الهواء - إذا هو عصف وتموج واضطرب واندفع إلى مسافات بعيدة بحيث ينشأ عن اندفاعه أحيانا كثيرة تخريب وتدمير ، وبلاء مستطير ، يحمل بعض السذج على سب الرياح واستنكار أمرها ، والتساؤل عن الحكمة في خلقها .

وإن في هذه الرياح واضطرابها ، واختلاف مهاها - ما لا يحصى من المنافع وتدير المصالح : من ذلك تسيير السفن في البحار ، وسوق السحب الحافله بالمطار ، وتلقيح النباتات والأشجار ، وحمل البذور وتوزيعها في الصحارى والقفار ، وقد ورد في بعض الآثار أن أمة من الأمم تدمرت من الرياح وتتابع هبوبها ، ورغبت إلى نبيها أن يدعو الله ألا يجعلها متهب على بلادهم ، فوعظهم منيهم ، وخوفهم العاقبة ، ونههم إلى ما في الرياح العاصفة من المنافع لهم ، وأنه تعالى لم يخلقها عبثا ، ولم يرسلها سدى ، فأبوا إلا الدعاء ، فدعا الله فسكنت الرياح تلك السنة ،

فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾

فعقمت الزروع والنباتات في حقولهم ، فلم تعقد ثمرها ، ولم تعط محصولا سوى التبن ، حتى عادوا فانتبهوا من غفلتهم إلى سوء فعلتهم ، وابتهلوا إلى الله في إغاثتهم ، وتفريخ كرتهم . وسواء أصححت هذه الرواية أم لم تصح فإنها تفصح عن مغزى صحيح في فائدة الرياح وشمول النفع بها للبشر

قال تعالى : ((والمرسلات عرفا)) أى والرياح التى أرسلت وأطلقت هابة بعد طول ركودها وسكونها : يقال " أرسل الخيل فى الفارة " إذا سرحها وأطلق لها العنان .

وقلما ذكر القرآن إطلاق الرياح إلا عبر عنه بفعل أرسل ، ففى سورة فاطر : (والله الذى أرسل الرياح) ، وفى الحجر : (فأرسلنا الرياح لواقح) ، وفى الأحزاب : (فأرسلنا عليهم ريحا) وفى الأعراف : (وهو الذى يرسل الرياح) ، وفى الروم : (ومن آياته أن يرسل الرياح) وفى آيات أخرى غيرها . فقوله تعالى هنا : (والمرسلات) من هذا القبيل .

أما قوله : (عرفا) فهو مثل لتابع الرياح المرسله ، وهبوب بعضها فى إثربعض ، مأخوذ من عرف الفرس ، وهو اسم للشعر النابت فى محذب رقبتة : يقال " اعرووف الفرس " إذا صار ذا عرف ، و" واعرووف البحر تراكبت أمواجه ، فصارت كالعرف . و" اعرووف النخل " كثف والتف ، فأصبح كالعرف . و" جاء القوم إلى فلان عرفا واحدا " إذا توجهوا إليه كوكبة واحدة . و" أصبحوا عليه كعرف الضبع " إذا تألبوا عليه .

وإعراب (عرفا) على الحال من المرسلات : أى أقسم بالرياح حالة كونها متتابعة يقفوا بعضها لإثربعض فى هبوبها .

وبعد أن يرسلها الله ويبعثها من سكونها تأخذ فى العصف بشدة . و[العصف] شدة الهبوب ، فالريح الواحدة عاصفة ، والجمع عاصفات . وعصفها يكون بعد إطلاقها وإخلاء سبيلها من دون تراخ . ومن ثم عطفه بالفاء فقال : ((فالعاصفات عصفًا)) أى الشديديات الهبوب ، السريعات المجر .

هذه الرياح إذا أطلقت وهبت على هذه الصورة أنشأت سحباً كثيرة تراها مبسوطة ومنشورة فى آفاق السماء . والذى نشر هذه السحاب وبسطها هنا وهناك فى فسيح السماء هو تلك الرياح العاصفة . وهذا هو معنى قوله تعالى فى صفحتها : ((والناشرات نشرا)) .

فَالْفَرْقَتِ فَرْقًا ﴿٥﴾ فَالْمُلَقَّيَاتِ ذِكْرًا ﴿٦﴾

وبعد أن تنشر الرياح السحب على هذه الصورة تأخذ في تفريقها وتوزيعها على البلاد ، فتحيي مواتها ، وتخصب نباتها . والذي يفترقها ويوزعها هنا وهناك هو تلك الرياح المرسلات العاصفات الناشرات . وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ فالفرقات فرقا ﴾ . و [الفرقات] اسم فاعل من فرق الأشياء إذا فصل أبعاضها . و فرق الشعر بالمشط إذا سرحه . ففرق الثلاثي كفرق الرباعي .

وقيل إن فرق فرقا للإصلاح : (وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم) ، و فرق تفريقا للإفساد : (فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) .

وما وصف الله به الرياح في هذه الأقسام من معاني الإرسال والنشر والفرق تضمنته آية سورة الأعراف مذ قال تعالى : (وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت) : فقوله هنا (المرسلات) من [يرسل] في تلك الآية . وقوله (الناشرات) من [نشرا] على قراءة من قرأه بالنون . ومعنى (نشرا) متفرقة تعم جوانب الأرض جمع نشور كرسل في جمع رسول ، وقوله (الفرقات) من [سقناه] : فإن معنى (سقناه) يرجع إلى معنى (فرقناه) أى أخذنا به ذات اليمين وذات الشمال لنحيي البلاد ، ونسقي العباد .

إن الأقطار التي تكثر فيها الأنهار المتدفقة ، والينابيع المتفجرة — قلما يفكر أهلها في أمر السحب والأمطار ، أو يشعرون بحاجة إليها ما دامت أراضيهم مضمونة الري ، مكفية المؤونة . أما أهالى البلاد الأخرى الذين حرموا الأنهار ومياه السيح ، والذين يتوقف خصب نباتهم وري زراعتهم على ماء المطر ، ومقدار ما ينزل منه كل سنة ، ويعلمون أن قلة الأمطار وانحباسها عنهم يعرضهم للجذب والتلف والهلاك — فهم لا يكادون ينظرون إلى الرياح المرسلات تهب وتنشر السحاب وتبسطه في أطراف السموات حتى تهتر بالفرح قلوبهم ، وتلوح بالذكر ألسنتهم . والذي يلقي هذه الذكري والبشرى على هؤلاء الناس إنما هو تلك المرسلات الموصوفة بما وصفها الله به من جميل الصنع ، وعميم النفع . وهذا معنى قوله تعالى في ختام صفاتها ﴿ فالملقيات ذكرا ﴾ أى فهى بعد أن تفرق السحاب وتوزعها هنا وهناك على البلاد تليق في قلوب سكانها أوعلى ألسنتهم ذكرا لمن أرسلها إليهم ، ومن بها عليهم .

عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ ﴿٧﴾

والبشر - وإن كانوا يذكرون الله حين يرون الرياح العواصف والسحب الحوافل - يختلف ذكركم هذا باختلاف إيمانهم بالله وصفاته ، ومبلغ تصديقهم بوجوه ورسالاته ؛ فمنهم قوم يكون ذكركم ((عذرا)) لهم عند ربهم في محوسباتهم ، والعفو عن خطاياهم ؛ لأنهم إذا ذكروا الله قرنوا ذكره بالشكر له على ما أولى من الرحمة ، وأسبغ من النعمة . ومنهم آخرون يكون ذكركم ((نذرا)) أى بمثابة الإنذار والتخويف لهم من سوء ما هم عليه من هذا الذكر الدال على كفرهم ، وفطر عنادهم ؛ إذ أنهم ينسبون حدوث هذه الرياح المرسلات ، والسحب الهاطلة - إلى أصنامهم وطواغيتهم تارة ، وإلى الأنواء وقرانات الكواكب تارة أخرى ، ويففلون عن الفاعل الحقيقي وهو الله تعالى .

وهكذا كان دأب أهل الجاهلية ؛ فإنهم كانوا إذا مطروا قالوا "مطرنا بنوء كذا" ، فنبى الشارع عنه ، وتقدم بالوعيد فيه ، ونبه في هذه الآية إليه مذ قال : (فالملقىات ذكرا عذرا أو نذرا) .

و[عذرا] مصدر عذّر - الثلاثي - إذا محّا الإساءة ورفع اللوم والعتب . و(نذرا) اسم مصدر لأنذر الرباعي إذا حذر وخوف . وهما في الإعراب بدل من (ذكرا) . والتقدير : إن تلك الرياح بإنشائها السحب الثقال تلقى في نفوس الناس ذكرا . وهذا الذكر بينا يكون عذرا ماحيا ذنوب المؤمنين الموقنين - يكون أحيانا كثيرة إنذارا للجاحدين المبطلين . ففى الآية تعريض بمشركي العرب ، وتقييح لما كانوا عليه من عبادة غير الله ، والغفلة عن الشكر له على آلائه ونعمه منذ نسبوها إلى غيره .

أقسم تعالى بهذه الرياح على أى شئ ؟ على أن ما أوعده به المشركين أمر لا ريب فيه ، وهذا معنى قوله تعالى ((إنما توعدون)) به أيها المكذبون من مجيء يوم القيامة والثواب والعقاب ((لواقع)) أى هو حق كائن لا محالة ؛ فلا تمتروا ولا تشكوا ؛ فقلوه : ((إنما توعدون الخ)) جواب القسم . وكما أقسم الله بالرياح العاصفة في سورتنا هذه على أن ما أوعده به المكذبين واقع - أقسم أيضا بنفسها في سورة الذاريات بالأسلوب نفسه على أن ما أوعدهم به صادق ؛ فقال تعالى : (والذاريات ذروا . فالحاملات وقرا . فالجاريات يسرا . فالمقسمات أمرا . إنما توعدون لصادق . وإن الدين لواقع) .

فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾

والمعنى : أقسم بالرياح التي تذر التراب ذروا ، ثم لا تلبث أن ينشأ عن هبوبها أثران عظيم الفائدة للبشر : سحاب حاملات في عنان السماء من ماء المطر حملا ثقيلا ، وسفائن جاريات على سطح البحر جريا سهلا ، وهذه السفائن أو مجموع هذه السفائن والسحاب في مجيئها وزهابها وغدوها ورواحها تقسم في أقطار البلاد ، أو توزع بين سكانها — أمرا عظيم الخطر ، عميم الأثر ، في انتظام معاشهم ، وتوفير تكاليف حياتهم ، وأى شيء مما خلقه الله أنفع للبشر من الأمطار التي تحملها السحب فتسقي بها زروعهم ، ومن ضروب الأقوات والأرزاق التي تجري بها السفن ثم تقسمها بينهم ؟

قوله : ﴿فإذا النجوم الخ﴾ بيان وتفصيل لما أجمله في قوله السابق : ﴿إنما توعدون﴾ من هول يوم القيامة (لواقع) ، فهو يقع على هذه الصورة : النجوم تطمس ، والسماء تفرج الخ .

[وطموس] النجوم ذهاب ضوءها ، والطموس إذا نسب إلى ما له نور كالشمس والقمر والنجوم كان بالمعنى المذكور ، وإذا نسب إلى العين كان معناه عماها وذهاب قوتها الباصرة ، وإذا نسب إلى القلب كان المراد ضلاله وحيرته ، وإذا نسب إلى المنزل أو الدار كان معناه انحائها وذهاب أثرها ، وهو لازم متعدد يقال : طمسته أنا ، وطمس هو بنفسه .

ووصف النجوم بذهاب ضوءها يوم القيامة لا ينافي وصفها بالانكدار والانتثار في آتى : (وإذا النجوم انكدرت) ، (وإذا الكواكب انتثرت) و(انكدرت) بمعنى (انتثرت) يقال : "انكدر في سيره" إذا أسرع وانقض ، و"انكدر القوم على فلان" جاءوه متتابعين ، ثم انصبوا عليه ، وليس هو من لون الكدرة ، فالنجوم يوم القيامة تنكدر وتتناثر ذاهبة الضوء فاقدة للألاء واللعان .

وفرّج [السماء] كناية عن إحداث الشق بين أجزائها المتلاحمة ، يقال : "فرّج الباب" إذا فتحه ، و"فرّج بين الشئين" أوسع بينهما وباعد ، وهذا معنى ما جاء في آتى : (إذا السماء انشقت) ، (وفتحت السماء فكانت أبوابا) .

وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرَّسُلُ أَقْتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾

أما [نسف الجبال] فقلعها من أصلها وتفريق أجزائها: من "نسف الحب بالمنسف" إذا نفضه وذرّاه ، و"نسفت الريح التراب" قلعتة وفرقته هنا وهناك . وهذا معنى ما جاء في آيات (وسيرت الجبال فكانت سرابا) ، (وبست الجبال بسا) ، (وكانت الجبال كتيبا مهيلا) . والمعنى في الكل أن الجبال ترحل بشدة عن مقارها ، وتعود كالفئات المتناثر ، والسفاسف^(١) المتطاير.

وقد وصف الوحي في هذه الآيات ما يطرأ على العالم يوم خرابه : من اضطراب جبله ، وانتكاث فتله ، وتبدل نظامه ، وزوال تماسكه وإحكامه ، والله تعالى وحده يعلم بأية الطرق والأسباب يحصل ذلك الخراب ، فعلى المسلم أن يؤمن به ، ويكل أمر كنهه وتفصيله إلى ربه .

هذا ما يكون من شأن السماء والأرض في ذلك اليوم الموعود ، أما ما يكون من شأن الخلائق يومئذ فإن الأمر أهم ، والخطب أطم ، والخوف أعم . ذلك أنه لا يعنى فيه أحد من السؤال والحساب حتى الرسل أنفسهم عليهم السلام ، فإنهم يغشون ذلك الموقف الرهيب في وقته المعين الذي كانوا ينتظرونه ، فيشهدون على أنفسهم ، ويرثون أنفسهم من تبعة التفريط في تبليغهم ، والتقصير في إحاض النصيح لهم ، وهذا معنى ((وإذا الرسل أقتت)) وأصله "وقتت" من الوقت ، وأنت الضمير باعتبار الجماعة ، أى جعل لجماعة الرسل وقت معلوم لا يتعدونه ، والعرب تعاقب بين الواو والهمزة ، فيقولون : "وكد الخبر وأكده" ، و"وقت الصلاة وأقتها" وفي الأسماء : وشاح وإشاح ، ووعاء وإعاء ، ووكاف وإكاف ، ووسادة وإسادة .

وفي التأقيت معنى التأجيل ، بل يقولون أحيانا : "وقت الأمر ليوم كذا" إذا أجله إليه ، فلما قال إن الرسل أقت لها ميقات تشهد في حينه حسن أن يقع السؤال عن ذلك الميقات الذى أقت ، والأجل الذى ضرب ، فقال تعالى : ((لأى يوم أُجِّلَتْ)) تلك الرسل ؟ ، وفي العدول عن "وقتت" إلى (أجلت) — وهما بمعنى واحد — تفنن في الخطاب ، وتطريئة للأسلوب ، كما أن في الاستفهام عن ذلك اليوم المضروب موعدا لقيام الساعة تفخيما لشأنه ، وتهويلا لأمره .

(١) سفاسف الدقيق ما ارتفع من غباره عند النخل ، وسفاسف التراب ما رق منه .

لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾

ثم أجاب عن هذا السؤال بأن الرسل أجلت ((يوم الفصل)) ، أى ليوم القضاء الفصل ،
أو الحكم الفصل ، ومعنى كون الحكم فى ذلك اليوم فصلا أنه لا معقب له ، ولا محابة فيه ،
بل تستقر النفوس عنده ، وتطمئن القلوب إليه ، وذلك منذ ينكشف عنها الغطاء ، فترى
الحقائق عيانا ، ويصبح علمها ضروريا ، ويتحول جحودها إيمانا .

ولم يكتف بتفخيم شأن ذلك اليوم ، يوم الفصل بالاستفهام عنه ، بل عاد فتوه بشأنه ، ونبه
إلى عظم هولته بقوله : ((وما أدراك)) أى ما أعلمك — أيها الإنسان — ((ما يوم الفصل ؟)) :
ما كنهه ؟ وأى يوم عظيم هو ؟ وعجيب منك أن تتغافل عنه ، وتلهو عن العمل له ، حتى كأنك
من شدة تهاونك ، وفرط غفلتك — أصبحت على بينة من أمر النجاة فيه . كلا ! فإن ذلك اليوم
أعظم من أن يدرك أمره إنسان ، أو يحيط به عقل أو جنان .

وجواب ((فإذا النجوم الخ)) محذوف موكول فهمه إلى فطنة السامع . والحذف على هذه
الصورة من أساليب الإيجاز التى امتاز بها القرآن .

وهو إما أن يقدر بمعونة آية ((إنما توعدون لواقع)) السابقة ، والمعنى : إذا طمست
النجوم وجرى كيت وكيت فإذا ذاك تعلمون صحة الوحي الإلهى ، وصدق ما وعدكم به من مجيء
يوم القيامة ، فتؤخذون بإجرامكم وسوء أعمالكم ، ويهتف من فوق رؤوسكم : ((ويل يومئذ
للمكذبين)) ، أى هلاك عظيم وخسار كبير فى ذلك اليوم لأولئك المكذبين بهذا اليوم الموعود ،
أو يقدر الجواب بمعونة آية : ((ويل يومئذ للمكذبين)) اللاحقة ، والمعنى : إذا طمست النجوم
وجرى كذا وكذا ، فهناك تعلمون مبلغ ضلالكم عن الحق وإغراقكم فى الجحود واستحقاقكم
للول والهلاك على تكذيبكم . وعلى هذا يكون فى قوله تعالى : ((ويل يومئذ للمكذبين)) إشارة
للجواب ودلالة عليه .

بعد أن أكد الخبر بيوم القيامة وأنه كائن لا محالة ، وبعد أن خوف المكذبين من شدة هولته
وفظاعة ما يقع فيه — عاد نخوفهم من بطش الله على أسلوب آخر فقال : ((ألم نهلك)) الأقوام
((الأولين)) الذين كانوا فى أبعد أزمنة التاريخ ، فكذبوا وحي ، وعصوا رسلى ؟ ((ثم)) بعد أن

ثُمَّ نُنَجِّهِمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾

أهلكناهم ألم ((تتبعهم الآخريين ؟)) أى نجعل الأقوام المتأخرين عنهم فى الزمن ممن كانوا مثلهم فى التكذيب والعصيان تابعين لهم فى الهلاك فأصابهم ما أصابهم ؟ وكان الظاهر أن يقول : "أما أهلكنا ... ثم أتبعنا ... ؟" لكنه عدل إلى المضارع إحضارا للحال الماضية فى الزمن وتصويرا لها فى أنفس المخاطبين ، حتى كأنهم يرون الآن مصارع الهالكين .

والمعنى أنكم أيها المكذبون بالقرآن أو بحمد عليه الصلاة والسلام تعرفون ذلك من فعلنا بالأمم الماضية ، فلماذا لا ترجعون عن تكذيبكم ؟ وتكفكفون من غرب عنادكم ؟

وما فعله تعالى بالأمم السابقة يفعلُه فى كل أمة نسلك مسالكهم فى الجحود والعناد والإعراض عن الحق . فهو ناموس عام يأخذ بالقهر كل من قاومه ، واعترض فى سبيله . وهذا هو معنى قوله ((كذلك)) أى مثل ذلك الفعل الذى فعلناه بالأولين والآخريين ((نفعل بالمجرمين)) من إخوانهم السائرين على مثل طريقهم . وفيه تعريض بمشركى قريش ، وإيقاظ لهم من غفلتهم ، وتنبيه إلى أنهم إن بقوا فى غشمتهم فسوف يتزل بهم ما نزل بغيرهم .

وقوله : ((ويل يومئذ للمكذبين)) تهديد للمجرمين الذين لا يراعون ولا يصغون إلى نداء الحق ، وتنبيه إلى أنه تعالى إن أراد إنفاذ مشيئته فيهم كما أنفذها فيمن قبلهم فإن الويل والهلاك الشديد يكون من نصيبهم جزاء تكذيبهم ، فلينبهوا للأمر ، وليحذروا من الخطر قبل وقوعه .

وجملة (ويل يومئذ للمكذبين) قد تكررت فى هذه السورة ، وتخللت آياتها عشر مرات ، كما كان فى سورة الرحمن من تكرير آية (فبأى آلاء ربك تكذبان ؟) . وقد حسن التكرير فى سورة الرحمن للتقرير بالنعم المختلفة التى كان الوحي يعددها واحدة واحدة ؛ فكلما ذكر نعمة قرر بها ، ووبخ على الغفلة عنها ، كما يقول الرجل لغيره : ألم أحسن إليك بأن منحتك الأموال ؟ ألم أحسن إليك بأن أنقذتك من الأهوال ؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت لأجلك كذا وكذا ؟ فيحسن منه التكرير لاختلاف ما يقرر به .

وهذا التكرير فى الحض على شكر النعم فى سورة الرحمن كالتكرير فى سورتنا هذه : من حيث إنها تضمنت ذكر نعم مختلفة ، وتقيم متعددة . فكان إذا ذكرهم بنعمة ، أو خوفهم من

أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾

نقمة — أكد التذكير والتخويف بذكر الويل والهلاك المهيأ للكاذبين الذين استخفوا بهذه النعمة ، أو تهاونوا بتلك النقمة ، فيكون ذلك رادعاً للمخاطبين عن الغفلة ، وزاجراً لهم عن التماضى في التكذيب ، وركوب الرأس في العناد .

وتكرير جملة واحدة وإعادتها مراراً في خلال الكلام الواحد مألوف للعرب ؛ معهود في خطبهم وأشعارهم ؛ فمهاهل بن ربعة رثى أخاه كليبا بشعر قال فيه :

وهمام بن مرة قد تركنا عليه القشمان من النسور

على أن ليس عدلاً من كليب إذا طرد اليتيم عن الجزور

ثم كرر قوله (على أن ليس عدلاً من كليب) زهاء عشر مرات .

ولما حثى الحرث بن عباد من بغى مهلهل وسفكه الدماء قال أبياته المشهورة التي يقول فيها :

(قرباً مربوط النعامة مني) ، وكرر هذه الجملة عدة مرات .

وفي هذا التكرير من هز السامع والتأثير في نفسه ؛ ما لا يخفى على المتأدب المتذوق من لغة العرب ؛ وما فيها من كل معنى عجب .

قوله : ((أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ اَلْخ)) تذكير للكاذبين ؛ وتعجيب من غفلتهم وذهولهم عن أن من خلقهم من ماء مهين بهذه الطريقة لا بد أن يكون قادراً على إعادة خلقهم للبعث والحساب ؟ لاجرم أنه تعالى قادر ؛ وهو أيسر عليه ؛ وأن المكذبين بذلك يستحقون الويل والهلاك .

ومراد به ((الماء)) المويهية التي يتكوّن منها الإنسان و ((مهين)) على وزن فاعيل ، ومعناه حقير أو ضعيف أو قليل ؛ وفعله مهين فهو مهين .

و ((القرار)) الذي جعل الله فيه ذلك الماء المهين هو الرحم ؛ مصدر قرّ بالمكان قراراً إذا ثبت وسكن ؛ ثم شاع استعماله في نفس المكان الذي يكون فيه الثبات والاستقرار : يقال : " صار الأمر إلى قراره " أى إلى حيث تنهى وثبت . وقال تعالى : (جعل لكم الأرض قراراً) أى موضع قرار وثبات . و ((مكين)) فاعيل من تمكن بالمكان إذا رست قدمه فيه . وحق ((مكين)) أن يوصف بها الماء الذي جعل في القرار ؛ لأنه هو الذي تمكن من القرار ؛ لا القرار نفسه ؛ لكنه جعل من صفته على المجاز والتوسع ؛ كما يقال " نهر جار " : جعلوا الجريان من صفة النهر ؛ والنهر الشق

إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾

في الأرض ، وإنما الجريان من صفة الماء . ومعنى كون الماء مكينا في الرحم أن يستقر فيه بوضع محكم ونظام ثابت يحفظه من الفساد والتغير ، ويهيئه لقبول التطورات المختلفة حتى يصبح جنينا ، ثم يولد بشرا سويا .

ويحتمل أن يكون (مكين) صفة لقرار الذي قلنا إن المراد به الرحم . ومعنى كونه مكينا أنه وضع من جوف المرأة ومطاوى أحشائها بحيث يكون صالحا لاستيداع النطفة ، مصونا مما يفسد عليه عمله ، ويحول دون قيامه بوظيفته .

والماء الذي جعل في الرحم يستمر بعد أن يستقر فيه ﴿ إلى قدر ﴾ أى إلى مقدار من الزمن ﴿ معلوم ﴾ ، أى معين محدد . وقالوا في تلك المدة إنها من ٢٧٣ يوم — وهى عبارة عن تسعة أشهر شمسية — إلى ٢٨٠ يوم ، وهى عشرة أشهر من الشهور القمرية ، أو أربعون أسبوعا .

ثم إن هذا الترتيب في جعل الماء المهيئ في الرحم ، وضرب أجل معين له حتى ينضج ويختمر وينشأ خلقا سويا ، وإنسانا مفكرا أحوزيا ^(١) — دال على ما للخالق جل شأنه من صفات الحكمة والتدبير والتقدير التى يستحق عليها سبحانه وتعالى أعظم مدح وأكرم ثناء . ومن ثم قال تعالى : ﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ بالتخفيف ، وهو بمعنى "قَدَرْنَا" بالتشديد . وقرئ بالتشديد أيضا ، ﴿ فنعم القادرون ﴾ نحن ، أى المقادرون . يقال "قَدَر الشئ" ، "وقَدَره" بمعنى واحد ، هو تهيئة الشئ ، وضم أجزائه ، والتأليف بينها على مقاييس ومقادير ونسب وأوضاع محكمة مدبرة ، تبلغ بذلك الشئ درجة كماله ، وإيفائه الوظيفة التى أوجد لأجلها . وهكذا الشأن فى أمر التوليد والولادة وتكون الجنين فى الرحم وتطوره فى الأشكال المختلفة — كل ذلك بترتيب عجيب ، وتدبير غريب ، يشهد بسمو الحكم الإلهية ، وجليل النعم الربانية ، التى يستحق مكذبها والممارى فيها الويل والخسران .

وجعل بعض المفسرين (قَدَرْنَا) بالتخفيف من القدرة لا من التقدير . والمعنى : إننا قدرنا على ما أردنا من جعل النطفة فى قرار مكين إلى انتهاء الوقت الذى تستوفى فيه كمالها من التدبير وحسن التصوير ، ﴿ فنعم القادرون ﴾ : أى نعم أصحاب القدرة نحن ، الجديرون بالحمد والثناء ، المستحقون لجميع ضروب العبادة والدعاء ، فالويل للمكذبين بقدرتنا ، الممارين بوعدنا ، وبحكم آياتنا .

(١) (أحوزيا) أى حاذفا ، مشمرا للأشور ، قاهرا لها : يسوقها أحسن مساق بحيث لا يشذ عليه شئ منها .

أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾

قوله : ﴿ أَلَمْ يَجْعَلِ ... الخ ﴾ تذكير بضرب آخر من ضروب نعم الله على الخلائق ، وعجيب صنعه في تدبير شؤونهم ، وتيسير راحة الحياة بل المات لهم ، بحيث يستحق المعرض عن ذلك ، والمكذب بما للرب فيه من المنة والفضل — الويل والخسار . من ذلك أنه تعالى جعل الأرض التي يحيى فيها البشر ويموتون صالحة لتقبلهم على ظهرها في حياتهم ، ولاندماجهم في بطنها بعد مماتهم فهي تكفّتهم وتضمهم إليها أحياء منتشرين في أعمالهم ومختلف أشغالهم ، كما تكفّتهم وتضمهم إليها أمواتا لا روح فيهم ، فتحفظ عوارهم ، وتصون كرامتهم ، فلا يبقون على ظهرها أشلاء ممزعة بكيف الحيوان : تنقبض منها النفوس ، وتتناهب الكلاب والوحوش . وقد جاء هذا المعنى في آية : (ثم أماته فأقبره) أى أمات الله الإنسان موتاً مميزاً عن موت سائر أنواع الحيوان ، وذلك بأن جعل له من جوف الأرض قبراً يوارى فيه تكمة له ، فلا تتناوشه السباع ، ولا يبق نصب أعين أهله وذويه ، فيسوء عيشهم ، وتتنصص حياتهم كلما رأوه مطروحا أمامهم .

و﴿ كِفَاتًا ﴾ مصدر كفت الشيء إلى نفسه ضمه ، وهو الذى نصب ﴿ أحياء وأمواتا ﴾ على المفعولية . أما من جعل (كِفَاتًا) اسماً بمعنى الموضع الذى يكفت فيه الشيء ويضم كالوعاء والصوان فان (كِفَاتًا) حينئذ لا تنصب (أحياء وأمواتا) بل ناصبهما فعل محذوف دل عليه (كِفَاتًا) كأنه قال : تكفت أحياء وأمواتا . ونكر (أحياء وأمواتا) لتعظيم شأنهما ، وأنها جميعا بلنوا في الكثرة مبلغا لا يعدون معه ولا يحصون .

ويصح أن تكون (أحياء وأمواتا) منصوبة على الحال ، فإنه قال : تكفّتم حالة كونكم أحياء وأمواتا . أما كون الأرض تضم الأموات إلى صدرها وتكون كِفَاتًا لهم فأمره ظاهر ، ولكن ما معنى أنها تضم الأحياء إليها ؟ وكيف تكون كِفَاتًا لهم وهم منتشرون فوق ظهرها ، متفلقون إلى كل جانب من جوانبها ، لا حواجز تصدهم ، ولا سدود تقوم في وجوههم ؟ قيل في الجواب : إن المراد بكون الأرض كِفَاتًا للأحياء أن منازلها ومسكنها كفات لهم ، تضمهم بين جدرانها للبيتوتة والراحة والسكنى ، كما أن المقابر كفات للأموات تضمهم بين جوانبها .

وأرى أن اكتشاف ناموس الجاذبية العام الذى بموجبه تجذب الأرض إليها ما على ظهرها من البشر والدواب وسائر الأشياء ، والذى لولاه لطاروا وتبددوا شذر مذر في الفضاء ، بسبب

وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ

حركة الأرض اليومية على نفسها ، وحركتها السنوية حول الشمس بسرعة فائقة الحد — هذا الاكتشاف يفسر لنا معنى ما قرره الكتاب الإلهي من أن الأرض كفات للأحياء مذ يكونون على ظهرها ، فإنها تجذبهم إليها ، وتضمهم إلى صدرها كما تفعل الأم الحنون ، فلا تدعهم يتفلتون وهم بذلك لا يشعرون .

ومن النعم والآلاء ، التي ذكّر الله بها المكذبين ، وحضهم على التأمل فيها والشكر عليها — الجبال ، مذ قال تعالى : ((وجعلنا فيها)) أى في الأرض جبالا ((رواسي)) : ثوابت رواسخ ، (شامخات) باذخات ، ذاهبات في السماء صعودا ، والنعمة في هذه الجبال من حيث إنها كالأوتاد للأرض في حفظ موازتها ، ورسوّ جوانبها ، واعتدال أقطارها ، فهي تقيها الاضطراب والجيشان والميدان ، كما تقي أوتاد الخيمة الخيمة من مثل ذلك . وقد كشف الوحي عن هذا المعنى فقال في سورة النحل : (وألقى في الأرض رواسي أن تمتدّ بكم) . ولولا هذه الجبال الشاهقة لكانت الأرض بما في جوفها من الغازات المحتقنة ، والبخارات المنضغطة ، والمواد المترابطة المشتعلة — دائمة الاضطراب والخفقان .

وقد يقول أرباب العلم الطبيعي في بعض مآذهبوا إليه : إن هذه الجبال إنما نشأت عن زلازل الأرض ، وتكونت من اندفاع حممها وموادها السائلة من باطنها إلى ظاهرها ، فكيف تكون سبباً في ثباتها وقرارها؟ والجواب أن اندفاع تلك المواد السائلة ، ونشوء الجبال عنها — لما كان سبباً في تثبيت الأرض وتسكين زلازلها واضطرابها كانت الجبال بهذا الاعتبار — لا باعتبار ذاتها وهي قائمة على وجه الأرض — كالأوتاد في تثبيتها ، ومنع ميّدانها . ولو بقيت المواد التي تكونت منها الجبال مستكنة في جوف الأرض ، ولم تنبعث من باطنها ، وتراكب جبالا على ظاهرها — ل بقيت الأرض دائمة الاهتزاز والاضطراب ، مستمرة الحركة والميدان ، فتكون الجبال إذن نعم المسكن لخفقان قلب الأرض ، المريحها من قلق بالها ، وهزة زلازلها ، وعبء أثقالها .

على أن في خلق الجبال الشواخ نعمة أخرى هي نشوء السحب فوقها ، وهطول الشلوج والأمطار عليها ، فتتكون بسبب ذلك الأنهار والجداول والينابيع ، ثم تكثر الزروع والأشجار

وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾

والمراعى وضروب النبات ؛ فالجبال مخازن الثلوج والأمطار ، ومستودعات عامة للبركات والخيرات ، وكل بلاد تطل فيها الجبال تطل فيها الأمطار ، فيقل الزرع والخصب ، وتكثر الصحارى المرملة ، ويعيم الجذب . وانظر كيف إنه تعالى بعد أن ذكر نعمة الجبال الشاخات قال ﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ أى عذابا بالغ العذوبة — للإشارة إلى أن الحكمة فى خلق الجبال هى أن تكون مستودعات للمياه والأمطار، ومادة للعيون والجداول والأنهار التى تستقى منها .

وقلنا ذكر القرآن الجبال إلا أعقبها بذكر الأنهار والينابيع . وليس ذلك إلا إشارة لما قلنا : من أن الجبال الشواخ وسائل للماء ، ومصايد لبركات السماء .

وإنما قال : (وَأَسْقَيْنَاكُمْ) ، ولم يقل : ” وَسْقَيْنَاكُمْ ” لأن فعل ” سقى ” الثلاثى أكثر ما يستعمل فى الماء الذى يعطاه الإنسان لشربه ، أما ” أسقى ” فأكثر ما يستعمل لما يعطاه لشربه ولشرب ماشيته وسقى زراعته . وهذه المياه التى جادت بها العناية الإلهية علينا بواسطة الجبال إنما كان النفع بها عاما شاملا لنا ولأنعامنا وزروعنا وبساتيننا ، ولغسل أجسامنا وثيابنا وسائر أمتعتنا .

ووصف الماء بالفرات وهو الشديد العذوبة لأن المياه التى تتفجر من صخور الجبال تكون أعذب من المياه التى تتحلب فى السهول والاحساء ^(١) .

قوله : (أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ) خطاب للمكذبين المذكورين فى قوله : ﴿ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ، أى أن الويل يوم القيامة سيحقيق بأولئك المكذبين بآيات الله ، الكافرين بنعمه ، ويقال فى ذلك اليوم لهم وقد أصبحت دار العذاب تحت مواقع أبصارهم : ﴿ أَنْطَلِقُوا ﴾ أيها المكذبون ﴿ إِلَىٰ مَا ﴾ أى عذاب ﴿ كُنْتُمْ بِهِ ﴾ فى دار الدنيا ﴿ تُكَذِّبُونَ ﴾ . وهذا العذاب الذى أمروا الانطلاق إليه هو بالطبع عذاب جهنم ، لكنه تعالى وصف فى هذه الآية شكلا جديدا من أشكاله ، ومظهرها بدعا من مظاهره وأحواله ؛ فقال لهم مكررا على أسماعهم الأمر الأول :

(١) جمع حصى ، وهو مهل من الأرض تستفقع مياه الأمطار تحت رماله .

﴿ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴾ ﴿ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْلَّهَبِ ﴾ ﴿٤١﴾

﴿ انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ﴾ . سمي العذاب ظلا تهكما واستهزاء بالمعذنين ، بدليل أنه وصفه بأوصاف لا تجتمع قط مع أوصاف الظل . الظل الذي يتغيّؤه الإنسان ويتخذ مقيلا لراحته ودعته — هو كالظل الذي وعد به أهل اليمين ، وهم فريق الأبرار مذ قال تعالى في سورة الواقعة : (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين . في سدر مخضود . وطلع منضود . وظل ممدود . وماء مسكوب) . ومعنى كون الظل الذي يتغيّؤه هذا الفريق ممدودا أنه منبسط ممتد لا يتقلص من جوانبه ، ولا ينثلم من أطرافه ، ولا ينفذ إليه الحرور من أية جهة من جهاته . أما ظل فريق الضجار فهو بئس الظل . وقد وصفه أيضا في سورة الواقعة فقال تعالى : (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال . في سموم وحميم . وظل من يحموم . لا بارد ولا كريم) : فقوله : (ظل من يحموم) أى من دخان أسود قاتم . ومن كانت فوقه ظلة من مثل هذا الدخان كيف يقال إنه في هناء وراحة ؟ وكيف يصح أن يسمى ما هو فيه ظلا إلا على طريق التهكم والاستهزاء ؟

ذلك الظل اليحمومي الذي ذكره الوحي في سورة الواقعة ، والذي قال إنه من نصيب أصحاب الشمال — أعاد ذكره في سورتنا هذه — المرسلات — وقال إن المكذبين يؤمرون يوم القيامة بالانطلاق إليه واصفا له بقوله : (ذي ثلاث شعب) ، يريد أن اليحموم من دخان جهنم الذي انعقد كالظلة على رؤوس المكذبين لا ينبسط ولا يمتد من فوقهم كما يمتد وينبسط الظل الممدود من فوق أصحاب اليمين ، بل يتخرق وينثلم وينشعب إلى ثلاث شعب أو ثلاث ذوآب . كما هو شأن الدخان المتكاثف إذا خلى ونفسه في الفضاء . وبديهي أنه إذ ذاك ((لا)) هو ((ظليل)) يظل من يكون تحته وبقية أوار الحز كما هي عادة الظلال كلها وخاصة الظل الممدود من فوق رؤوس السعداء ، ((ولا)) هو أيضا ((يغني)) عن الجهنميين المستظلين به وبقية ((من اللهب)) أى السنة النار المتدلعة إليهم من كل جانب . فما هذا الظل الملعون ؟ وأنى يكون للمستظل به راحة وسكون ؟

وقال أبو مسلم الأصفهاني : يحتمل أن يكون المراد من شعب الظل الثلاث أوصافه الثلاثة المذكورة بعده وهي أنه ليس بظليل ، وأنه لا يغني من اللهب ، وأن ناره أو شعبه ترمى بشرر كالقصر .

وفعل [يغني] هذا بمعنى قولهم " لا يغني عنك فلان شيئا " أى لا يجدى ولا ينفع ولا يفيد . وهو يتعدى بعن ، و (عن) في الآية مقسّرة مع مجرورها كما أشرنا . و [من اللهب] متعلق بيغني لتضمنه معنى الوقاية والحفظ كما أشرنا إليه أيضا .

إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾

وزهد قطرب إلى أن اللهب هنا بمعنى العطش لا بمعنى الشواظ الذي يعلو النار ، يقال :
 طب الرجل لها ولهبانا إذا عطش فهو لهبان ، والمعنى عليه : إن ذلك الظل لا يظل من وهج الحر ،
 ولا ينفع في تخفيف العطش كما هي عادة الظلال الباردة .

فهم المخاطب من أوصاف الظل في الآية السابقة أنه ظل جهنمي ، وأن المراد به الدخان
 المنعقد في سماء جهنم ، فلم يعد يتردد في كون ضمير «إنها ترمي» المؤنث - عائدا إلى جهنم أو دار
 العذاب . على أنه يصح أن يرجع الضمير المذكور إلى قوله (ثلاث شعب) التي قلنا إن المراد بها
 ذوائب اليعقوم المتكاثف في سماء تلك الدار ، فهو دخان لا كالدواخن ^(١) المعقودة ، وله صفات
 غريبة غير معهودة ، من ذلك (أنها) أي شعب اليعقوم وذوائبه (ترمي) على المستظلين بها
 من آونة إلى أخرى «بشر» جمع شررة ، وهي ما يتطاير من النار أثناء تلظيها ، وكل واحدة
 من هذا الشر «كالقصر» أي كالبيت المبنى .

وقد يستعظم السامع هذا الوصف ، ويستغرب تشبيه الشر بالقصر ؛ لأنه إنما يفهم من
 القصر حسب المشهور في معناه - البناء العظيم المشرف ، فيقول كيف تكون الشررة الواحدة
 المتساقطة من ذلك الدخان أو من تلك النيران كالقصر ؟ بل ربما ذهب خياله إلى قصور الملوك
 الباذخة ، ذات الشرف والقمم والأبراج الشاخنة ؛ فيستغرب الوصف ، ويستبعد الأمر ، ولكن
 القصر إن كان يطلق في لغة العرب على هذا الضرب من المساكن الشاخنة فإنه يطلق على كل
 بيت من حجر ولو كان صغيرا لا طئا ، بل قال ابن عباس رضى الله عنهما : "إن تشبيه الشر
 بالقصور وارد على ما هو المعتاد في بلاد العرب من جعل قصورهم قصيرة السمك - أي قليلة الارتفاع -
 جارية في هيئاتها وشكلها بحرى الخيام اهـ" وقد لمح أبو العلاء المعرى قول ابن عباس هذا فقال
 يصف نارا عظيمة ويشبه شررها بالخيام :

هماء ساطعة الذوائب في الدجى ترمي بكل شرارة كطراف ^(٢)

(١) يجمع دخان على دواخن كما يجمع عثان (أي غبار) على عوائن ، وليس لها نظير في هذا الجمع الشاذ .

(٢) (الطراف) الخيمة من الجلد المدبوغ .

كَأَنَّهُ جَحَلَتْ صَفَرٌ ۖ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾

وقد فسر بعضهم (القصر) الذي شبهت به الشرارة — بجزل الخطب، أى بالغليظ من أعواده وكان هذا القائل استبعد أن يكون المراد بالقصر البيت الحجري لما ذكرنا آنفاً ، مع أن تفسيره به من أحسن التشابيه ، وأشدّها انطباقاً على ما كان مألوفاً للعرب في ذلك العهد . وكثيراً ما شبه شعراؤهم النياق بالقصور ، قال عنترة :

فوقفت فيها ناقتي فكأنها فَدَنٌ^(١) لأقضى حاجة المتلوم

وقال امرؤ القيس :

ولما أن جرى سمن عليها كما طينت بالفَدَن السَّيَاح^(٢)

يريد أن ناقتة لما سمنت كان اللحم متراكماً عليها تراكب الطين على جدران القصر .

وقال الأخطل :

كأنها برج رومي يشيده لُزُّ بجصٍّ وأحجار

وقالوا في وصف نياق أو أفراس : ” إن وقفن فجادل ، أو مررن فأجادل “ والمجادل القصور ، والأجادل الصقور .

ثم ذكر الكتاب لشرر جهنم تشبيهاً آخر غير تشبيهه بالقصر فقال : (كأنه جمالات صفر) أى كأن شرر جهنم المتطايير عنها [جمالات] جمع جمل وهو الحيوان المعروف ، وهو جمع جمال كما قالوا في رجل رجال ثم رجالات ، ومن جموع جمل أيضاً جمالة ، وقرئ به أيضاً (كأنه جمالة صفر) .

شبه الشرارات بالجمالات في عظمها ولونها ، ثم في كثرتها وانتشارها هنا وهناك : في المرعى وفي تتابع بعضها إثر بعض وهي سائرة في قطارها . وهكذا الشرارات ، تنبعث الشرارة إثر الشرارة أثناء تلظى نارها ، و [الصفر] ذات اللون الأصفر المعروف ، أو المراد بالصفرة هنا السواد الضارب إلى صفرة ، فإن هذا اللون هو اللون الغالب في ألوان الإبل عند العرب ، والعرب يستعملون وصف [الأصفر] فيما كان لونه كالذهب والزعفران ، وفيما كان لونه أسود كالغراب والدخان

(١) (الفَدَن) بفتحين القصر .

(٢) (السَّيَاح) الطين بالثين .

فهو من أسماء أو صفات الأضداد ، حتى فسر بعضهم قوله تعالى في وصف بقرة بنى إسرائيل (صفراء فاقع لونها) بأنها سوداء خالصة اللون .

وكما جعل بعض المفسرين (القصر) في الآية بمعنى جذوع الحطب الضخمة لا البيوت المعروفة كذلك جعل بعضهم (الجمالات) جمع الجمل بمعنى القلُس لا الحيوان المعروف ، والقلُس جبل السفينة الضخم ، وقال إن الكتاب يُشَبَّه الشرر في تنابعه وتلاحقه واتصال كل شرارة باختها بحبال السفن الضخمة البالغة الغاية في الثخانة والطول ، فشرارات ناردار العذاب ترى في ضخمتها وتماسكها ولونها الأصفر الضارب إلى السواد — كالقُلُوس ، أى حبال السفن التي هذه صفتها . والحاصل أن الوحي الإلهي شبه شرر جهنم في كبرها ولونها بالقصور والجمال ، أو بجذوع الحطب والجمال .

ولا تعجب من قرن الجمال الصفر بالقصور المحمر في الذكر ، ولان الجمع بينهما في التشبيه فانك إذا نظرت إلى قرية من قرى العرب وقصورها ، أى أبنياتها الصغيرة اللاطئة المحمرة أو المصفرة بلون طينها أو ترابها أو حجارتها وهى منتشرة هنا وهناك في جنبات السهل الأفيح ، ويتخللها أو يسرح في كل جانب من جوانبها نياق وجمال مصفرة اللون أو مسودته ترعى وتتناول بمشافرها أوراق الشيخ والقيصوم تارة هنا وطورا هناك — إذا وقع نظرك على ذلك لمحت من بعد في آن واحد أجساما صغيرة حمراء أو صفراء أو سوداء تترأى لك من خلال الكلا والعشب الأخضر: هذه البيوت هنا ، وهذه الجمال هناك في مشهد واحد ، وإذا ذاك لا تعود تستبعد تشبيه الشرارات الجهنمية بتلك الأبنيات والجمالات ، ولا تستغرب قرنهما معا في الذكر ، بل تستحلى ذلك وتعجب به . وأمر هذه التشابه ، ووقعها في النفوس ، وقربها أو بعدها من الأذواق — مرجعه الألفة والاعتیاد . ومقدار تأثر الحواس والمشاعر بها . وهذا منشأ خطأ الكثيرين — لا سيما الذين يجهلون أحوال العرب ، وأطوار معاشها ، وأساليب حياتها — في حكمهم على القرآن وبلاغته مذيرونة يصف وصفا ، أو يطلق قولا ، أو يورد تشبيها ، أو يحكى قصة غير مألوفة لنا اليوم ، ولا مما جرينا عليه في أساليب كلامنا ، ولا مما اعتدنا أن نشعر به في حياتنا وأطوار اجتماعنا . ويكون السبب في قصور حكمهم مخالفة ما نحن عليه لما عند أولئك العرب المخاطبين بالقرآن ، الذى روى في آياته وأساليب خطابه ما اعتادوه وألفوه هم ، كما قال ابن عباس في تشبيه شرر النار بالقصور : ” إنه وارد على ما هو المعتاد في بلاد العرب من جعل قصورهم قصيرة السمك جارية في هيئتها وشكلها مجرى الخيام “ .

هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾

ولعل ابن عباس إنما قال هذا بعد أن رأى ما رأى من قصور الشام والعراق التي يستحل شعراؤهم أن يشبهوها — مذ يرونها مبنوثة بين المروج — بالدر بين الزبرجد ، قال شاعرهم :

لاحت قراها بين خضرة مرجها كالدر بين زبرجد مكنون

وجميع ما يقال في ملذات الجنة ، وهل هي من جنس ملذات الدنيا أو أنها غيرها وقد ضربت ملذات الدنيا لها مثلا — يقال في نار جهنم وأسباب العذاب التي فيها : أهى نيران وأسباب من جنس نار الدنيا وأسباب التعذيب التي فيها ؟ أم أن نيران الدنيا وأسباب عذابها ضربت مثلا لنار الآخرة ؟ — كل ذلك لا تقطع القول فيه قطعا ، وإنما تؤمن به ونكل أمر الكنه والحقيقة فيه إلى الله تعالى . وهذا يكفي في سلامة عقيدة المسلم مادامت عقيدته تسير به في طريق المخافة من تلك النار ، فيمثل أمر الله ، ويمارس الطاعات ، ويتنهي عما نهاه الله عنه ، ويحجب السيئات . أما إذا لم يفعل ذلك ، ولم تنبه عقيدته عن الفحشاء والمنكر — فإنه لا يفيد بل لا ينجي اعتقاده في جهنم مهما اعتقد فيها ، وفي نوع نارها ، وأفانين عذابها ، إذ العبرة في الاعتقادات الدينية لأثارها المتجلية في الأعمال والأخلاق وطهارة النفوس ، وليست العبرة فيها لكلماتها المرددة في الأفواه والمرقومة في بطون الطروس .

(هذا) إشارة إلى ما قصه علينا من خبر ذلك الظل الجهنمي ، ووصف شره العظيم — واقع وكائن لا محالة يوم القيامة ، وهو (يوم لا ينطقون) أى لا ينطق فيه أولئك المكذبون ولا يتكلمون كلاما ينفعهم ، أو يدلون بحجة تنقذهم . فليس المراد نفي النطق عنهم بجملة ، بل نفي النطق النافع المفيد ، إذ أنهم يوم القيامة يتكلمون ، كما قال تعالى (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) (وقالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) ، (ربنا أخرجنا منها) في نظير ذلك . وهذا كما تقول لمن تهده : "إنك إن خالفتني وفعلت ما نهيتك عنه فلا كلام ولا عذر" تعني لاشيء منهما بمسموع منك ولا بمقبول ، وإلا فقد يكثر ذلك المذنب وقتئذ من الثرة ، وإيراد المعذرة بعد المعذرة .

(١) هذا على قراءة "يوم لا ينطقون" بنصب يوم ، أما على قراءة الرفع فالإشارة إلى وقت وقوع العذاب الذي وصفه ؛ ليصح الإخبار عنه بيوم . وما قاله المؤلف تلقين من الوجهين مع تقدير متكلف . المصحح .

وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾

وكذلك هم يومئذ ﴿لا يؤذن لهم﴾ في أن يعتذروا أو يدلوا بحجة عن أنفسهم . وما الفائدة في الإذن لهم بذلك إذا كانت لا تسمع منهم تلك الحجج والأعذار ولا تقبل ؟ ولكنهم مع ذلك ومع عدم الإذن لهم بالاعتذار تراهم يندفعون بسائق الطمع في الخلاص والحرص على السلامة ، وبمقتضى الجلبة البشرية إلى الإكثار من الكلام وسرد الحجج والمعاذير من دون ما فائدة كما قلنا ، فقوله تعالى : ﴿فيعتذرون﴾ معطوف على (يؤذن لهم) ونفيه مسلط عليه ، والمعنى لا يكون لهم إذن ، كما لا يكون منهم اعتذار . ونفى الاعتذار هنا كنفى النطق في (لا ينطقون) من حيث إن المراد فيهما كليهما نفى النطق النافع ، ونفى الاعتذار المفيد الناجع ، وإلا فهم ينطقون ويعتذرون ، كما يفعل عادة المذنبون المخصوصون .

وإنما لم يقل [فيعتذروا] بالنصب ويجعل الفاء للتسبب ، لأن ذلك يومهم أنهم إنما لم يعتذروا لأجل أنهم لم يؤذن لهم في الاعتذار ، وأنهم لو أذن لهم لاعتذروا العذر المسموع . وهذا غير مراد ، وإنما المراد أنه لا عذر لهم كما لا إذن لهم ، فالفاء لمطلق العطف لا للتسبب . هذا مع ما في رفع (يعتذرون) من رعاية الفاصلة وموافقة رءوس الآي ، وهو غرض صحيح ، في تأليف أجزاء الكلام الفصيح .

وذهب بعض المفسرين - وهو منقول عن ابن عباس أيضا - إلى أن للناس يوم القيامة مواطن ومواقيت ، فقد يتكلمون ويختصمون في موطن ، ولا يتكلمون ولا ينطقون في موطن آخر . وقد يؤذن لهم فيلقون معاذيرهم في وقت ، ولا يؤذن لهم فلا يعتذرون في وقت آخر . و[اليوم] في كلام العرب كثيرا ما أريد به مطلق الوقت ، لا بياض النهار بعينه بين الشروق والغروب ، وذلك إذا أضافوه إلى فعل لا استمرار له ، فيقولون مثلا أزورك يوم يقدم فلان . يريدون وقت قدومه ولو كان قدومه في الليل . وقال شاعرهم :

اليوم يرحمنا من كان يغبطنا واليوم تتبع من كانوا لنا تبعا

أراد باليوم مطلق الزمن والوقت ، ولم يرد حصة منه معينة .

وبالجملة فإن الخطب يوم القيامة شديد ، وويل المكذبين محقق أكيد ، فנסأل الله السلامة ، من أن نقف موقف حسرة أو ندامة .

هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾
وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ

(هذا) أى ذلك الوقت الذى لا ينطق فيه المكذبون ولا يعتذرون هو (يوم الفصل) أى يوم الحكم الفصل . ومعنى كون الحكم فصلا أنه لا شفاعة فيه ، ولا رجوع عنه ، ولا تعقيب له . أو المعنى أنه يفصل فيه بالحق بين الخلائق ؛ فلا يمكن لواحد منهم أن يقول : إنه ظلم ، أو لحقه حيف أو بئس .

ثم زاد ذلك اليوم إيضاحا وكشفا عن حقيقة حاله فقال : (جمعناكم) فيه أيها الأقوام المتأخرون فى الزمن لموعدهم الذى كنا وعدناكموه فى دار الدنيا . (و) قد جمعنا أيضا معكم (الأولين) المتقدمين فى الزمن عليكم من الأمم ؛ لنحكم بينكم جميعا . فيها نحن أولاء قد وفينا لكم بذلك (فإن كان لكم كيد) وحيلة تتوسلون بها إلى النجاة والخلاص من عقوبتنا التى أوعدناكم بها كما كنتم تزعمون فى دار الدنيا ، وتغالون به وقت أن كانت رسل وأنبياءى تخوفكم من هذا اليوم وتحذركم أهواله — (فكيدون) أى فكيدونى ، واحتملوا على ، واعملوا على الخلاص من يدي إن قدرتم . وهذا توبيخ لهم على ما كان منهم فى دار الدنيا من الكيد للأنبياء ، والتكذيب بالوحي وتسجيل عليهم بالخزي والعجز والاستكانة . و[الكيد] المكر والحيلة . و[كاده] مكربه ، واحتمال عليه ، وحاربه ، وأراد به بسوء . و[كاد للأمر] احتال له ، وحاول الوصول إليه بمختلف الطرق والأسباب .

لا جرم أن حيلة هؤلاء الكائدين تكون يومئذ باطلة ، وتعلاتهم داحضة زائلة ، ويكونون مستحقين للويل والهلاك جزاء تكذيبهم الوحي ، وعصيانهم أمر الله .

قوله : (إن المتقين الخ) وارد على عادة القرآن فى تصنيف المخاطبين ، والمعاقبة بين أحوالهم ومختلف أطوارهم ، فلا يذكر حالا إلا أعقبه بضده ، ولا يصف ما يكون لفريق إلا أتبعه بذكر ما يكون لقسمه : يلون الخطاب فى ذلك ، ويتفنن فيه ما شاء ، تطرئة للكلام فى الأسماع ، وبلوغا إلى ما يريد من إحداث الرغبة أو الرهبة فى النفوس ؛ فهو فى هذه الآيات يعدد ما هياؤه لأهل طاعته فى دار الثواب من صنوف البهجة والخفض والنعيم ، بعد ما عدد ما يكون للمكذبين من

فِي ظِلِّلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوْا كَهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾

ضد ذلك ؛ فقد ذكر أولا أن المكذبين سيأوون إلى ظل لا كالظلال ؛ فهو لا يبق حرا ، ولا يدفع عطشا ، ولا يحدد المستظل به مما يشتهيه لراحته ودعته سوى شرر النار الهائل في شكله العجيب في أمره .

أما فريق (المتقين) المصدقين بالوحي فهم على العكس (في ظلال) ممدودة عليهم ، يتقلبون تحتها في صنوف الراحة والغبطة والجزل . وليست هي كالظلال البهيمية التي يأوى إليها فريق المكذبين . (و) كذلك المتقون هم في (عيون) . ومعنى كونهم فيها أنهم قريبون منها وعلى حافاتها بحيث لا يعسر عليهم الشرب والتناول منها أى وقت أرادوا . وليسوا هم كفريق المكذبين الذين لا يكون لهم تحت ظلهم إلا شدة الحر وفرط العطش .

وذكر [العيون] هنا ربما أيد ما قاله "قطرب" من أن المراد باللهب في قوله السابق "ولا يغنى من اللهب" العطش . ويقال رجل لبان أى عطشان ؛ فيكون قوله هنا (في ظلال) مقابل لقوله ثمة (ظل ذى ثلاث شعب لا ظليل) ، وقوله (وعيون) مقابل قوله (ولا يغنى من اللهب) أى العطش ؟ وقوله (وفوا كه مما يشتهون) مقابل قوله : (إنها ترمى بشرر كالقصر) ، أى إن المكذبين إن كانوا لا يتساقط على رؤوسهم من جوانب ظلهم وشعبه المنخرقة سوى الشرر المحرق والشواظ الموجه فإن المتقين لهم في ظلالهم الممدودة فوقهم فوا كه وثمار تساقط عليهم ، ويتناولون من أنواعها ومختلف أصنافها ما اشتبوا وأحبوا .

ويشبه أن يكون عطف قوله (وعيون وفوا كه) على قوله قبله (في ظلال) — من قبيل قول الشاعر : "وزججن الحواجب والعيونا" ؛ فإن التزجج أى الترقيق يكون للحواجب ولا يكون للعيون ، والمقام يعين أن يكون التقدير "وتكأن العيونا" ، وكذلك هنا ؛ فإن استقرار المتقين وتبوأهم إنما يكون في الظلال الممدودة من فوق رؤوسهم ، ولا يكون التبؤ في العيون الجارية ، ولا في الفوا كه الياقة ؛ فيتعين أن يكون التقدير "إن المتقين يقيمون في ظلال ويشربون من عيون ويأكلون من فوا كه" ، وهذا الحذف من لطيف إيجاز القرآن ، وعجيب إدماجه . أما على التوجيه الأول الذى جعل فيه متعلق الجار واحدا فالتقدير هكذا : إن المتقين يمرحون في صنوف من نعيم الجنة : ظلال وعيون وفوا كه ، وربما كان هذا التوجيه في تفسير الآية أعلق بالبلاغة وأدنى إلى الصواب .

كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٤﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٥﴾ وَيَلُوكَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٦﴾ كَلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ جُحْرٌ مُؤَن

وقوله تعالى : (كُلُوا واشربوا هنيئًا بما كنتم تعملون) فيه أيضا شيء من الإيجاز والإدماج : إذ التقدير : إن المتقين مستقرون في تلك الظلال ، مقولا لهم : (كُلُوا واشربوا الخ) ، وليس المراد من ذلك أمرهم بمجرد الأكل والشرب والاقتصار على لذواهما ، لأن ما كانوا يعملون من الطاعات ويعالجون من المشقات في سبيل رضا الله أكرم وأكبر من أن يكافئهم ربهم عليه بالأكل والشرب وحدهما ، وإنما هناك ملذات وصنوف من النعيم لا توصف ولا تحصى ، ولا يُدرك كنهها كما في الحديث القدسي " أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر " — يؤمر أولئك المتقون الصالحون في الدار الآخرة أن يتمتعوا بها ، ويتناولوا منها ما شاءوا وأحبوا ، وهذا كما تقول لابنك المطيع وقد أسديت إليه فعا وأيادي " اذهب يا بني " ، كل واشرب وتمتع بهذه اللذوى جزاء برك بي وطاعتك لي " وأنت تريد إظهار الرضا عنه ، والثناء عليه بما كان منه من الطاعة والبر ، وإعطائه الحق في أن يكون حرا مطلق السراح يفعل ما يشاء ، بعد ذلك النصب والعناء ، ولا تريد قط أن يكون الأكل والشرب هو كل همه ومنتهى حظه من تلك النعم والأيادي التي أسبغتها عليه ، وقد مر في تفسير قوله تعالى : (كُلُوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم في الأيام الخالية) في سورة الحاقة — زيادة تفصيل وإيضاح لما قلنا هنا فراجعه ثمة إن شئت (١) .

وقوله : (إنا كذلك الخ) يريد إنا كما جزينا المتقين بما ذكر من صنوف الراحة ، وأنواع الدعة والنعيم في جنات الخلد إثابة لهم على ما كان من طاعتهم لنا في دار الدنيا — كذلك نجزي ونثيب كل محسن متق مطيع على إحسانه وتقواه وطاعته : لا نضيع لعامل عملا ، ولا نبخس لأحد حقا ، فالويل بعد هذا لمن كذب وحنينا ، وخالف أمرنا ، وعصى رسولنا .

وقوله : (كُلُوا وتمتعوا الخ) خطاب للكاذبين الذين أنذرهم في الآيات السابقة بالويل والهلاك إن هم أصروا على تكذيبهم . وليس المراد من (كُلُوا وتمتعوا) حقيقة الأمر بالأكل والتمتع ، وإنما المراد به التهديد والوعيد ، فهو يقول لهم : (كُلُوا) ، وارضوا من حياتكم الدنيا بتناول المطاعم والمشارب كما هو شأن البهائم التي همها علفها ، وملء كروشها ، وهي لاهية عما يراد بها ، (وتمتعوا)

(١) في صحيفة ٨٤ : من هذا الكتاب .

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾

كيف شتم بالملذات ، وتمتعهم الشهوات ، تمتعوا أوزمنا (قليلا) ، وهو مدة أعماركم القصيرة في دار الدنيا ، (إنكم) أيها المكذبون (مجرمون) . وقد سن الله للجرمين قبلكم سننا لا تتبدل ونواميس لا تتخلف . وهو تعالى أخذ بكم مأخذهم ، فيسهلكم في غفلتكم ، ويمدكم في طغيانكم ، حتى إذا جاء موعدكم تكفل بكم ، وأقر عين العدل بالانتقام منكم .

فقلوه : (كلوا وتمتعوا) يفيد التهديد والوعيد ، كما يفيد قولا لآخر وقد نهيته عن أمر فلم ينته — : " افعل ما تشاء ثم انظر ما يحل بك " ، ولا تريد بذلك طلب الفعل منه ، بل تريد أن البلاء نازل به إن أصر على المخالفة .

ويشبه أن يكون أراد في قوله : (كلوا وتمتعوا) التفريع والتعير الذي أراده الشاعر في قوله :

إني رأيت من المكارم حسبكم أن تلبسوا خز الثياب وتشبعوا
وإذا تذكركت المكارم مرة في مجلس أنتم به فتقنعوا

وربما أوهم بحىء قوله : (كلوا وتمتعوا) في خطاب المجرمين بعد قوله : (كلوا واشربوا هنيئا) في خطاب المتقين — أنه خطاب للمجرمين في دار العذاب الأخرى ، كما أن خطاب المتقين يكون في دار النعيم الأخرى . وليس الأمر كذلك ، لقوله في خطاب المجرمين (قليلا) ، أى أكلا وتمتعوا قليلا ، فيكون مفعولا مطلقا ، أو مدة وزمنا قليلا ، فيكون ظرفا ، وعلى كلا الإعرابين لا يناسب أن يقع هذا في خطاب المجرمين وهم في دار العذاب ؛ لأن أكلهم وتمتعهم إنما يوصف بالقلة في مقداره أو في زمنه إذا لاحظناه واقعا في دار الدنيا الفانية ، لا في دار الآخرة الخالدة : التي يأكل المجرمون ويتمتعون بما فيها من طعام الزقوم وشراب الغسلين تمتعا وببلا ، وزمنا طويلا لا آخر لها ، ولا يلتزمان عند حد .

(و) من جملة صفات هؤلاء الجاحدين المكذبين الذين استحقوا الويل ونزول العقوبة الإلهية بهم كما نزلت بالأئم قبلهم — أنهم (إذا قيل لهم اركعوا) ، أى اخشعوا لله تعالى وتواضعوا له ، ودعوا هذا الزهو والعجب والاستكبار — (لا يركعون) ، ولا يتواضعون ولا يخشعون ، بل يصرون على زهوهم واستكبارهم ، فالركوع هنا بهذا المعنى لا بمعنى التحية والانحناء على الركبتين للصلاة : يقال ركع إلى الله إذا اطمأن إليه وخضع .

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد به ركوع الصلاة، فالمعنى : إذا قيل لهؤلاء المكذبين : صلوا إلى الله مع جماعة المسلمين ، وشاركوهم في إخلاص العبادة له ، واخلعوا الأصبانم والطواغيت التي تعبدونها - أبوا واستكبروا . ولما باؤهم الصلاة لله تعالى بعد أمر النبي لهم بذلك ما هو إلا تكذيب لنبيهم بما أبلغهم إياه من وجوب الركوع لله ، على أن نبيهم صلى الله عليه وسلم ما كان ليأمر بالصلاة من عند نفسه ، فامتناعهم عنها هو في المعنى عصيان لأمر الله ، وتكذيب لخبر الله ، فكيف لا يكون هؤلاء المكذبون مستحقين للويل والعذاب ، يوم العرض والحساب ؟

ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل هند بنت عتبة زوج أبي سفيان وقد أسلمت يوم فتح مكة : كيف ترين الإسلام يا هند ؟ قالت : ”بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، حسن لولا ثلاث“ . قال : وما هن ؟ قالت : ”التجبية ، والخمار ، ورقى هذا العبد الأسود على ظهر الكعبة“ . والتجبية الركوع ، ويطلق على السجود أيضا ، وتعنى بالعبد الأسود سيدنا بلالا رضي الله عنه مذ يعلو الكعبة للأذان ، فأجابها صلى الله عليه وسلم بقوله : ”أما التجبية فلا صلاة من دون ركوع ، وأما الخمار فهو أحسن ستر ، وأما الأسود فإنه نعم العبد هو“ .

وكان سادات قريش يرون الركوع والسجود من أشد الأمور عليهم ، وذلك لفرط تيههم ونخوتهم ، ولذا قال بعض هؤلاء وقد أبى الإسلام : ”والله لا تعلقوني استي“ . ويروى أنه صلى الله عليه وسلم أمر وقد ثقيف بالصلاة ، فقالوا : ”لا نخشى ، فإنها سبة لنا“ ، فقال صلى الله عليه وسلم : ”لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود“ ، على أن الإسلام إنما جاء لترويض النفوس العاتية وتذليل أنفها .

وكان نساء الجاهلية يكثرن من التبرج وإبداء الزينة ، وقد اعتدن ذلك ، ولذا استعظمت السيدة هند إلزامهن باستعمال الخمار ، ووجوب ترك التبرج المعتاد لما فيه من ستر المحاسن ، وكذلك استعظمت أن يطأ سيدنا بلال الكعبة بقدمه والعرب كانوا يحلون كثيرا ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أشار في الجواب إلى أن المؤمن الصالح كمثل بلال أفضل من الكعبة ، لا سيما إذا كان يدعو إلى الله ، وإلى عبادته الخالصة من شوائب الوثنية ، وفي قوله هذا سد لذريعة عبادة الكعبة التي ربما كانت تخالج نفوس بعض العرب .

فَبَأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

ثم إن هؤلاء المكذبين إذا لم يؤمنوا بهذا الوحي الساموي والحديث الإلهي الذي خاطبهم به ربهم على لسان نبيهم - (فَبَأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ؟) لا حديث ولا كتاب سماوي يبلغ ما بلغه القرآن من صدق اللهجة ، ونصوح الحجّة ، ووضوح الحجّة ، فإذا كذبوا بالقرآن ، ورغبوا عن هديه ، وزهدوا في وعظه ونصحه - كانوا عن غيره أرغب ، وفي وعظه ونصحه أزهد .

وهكذا يقضى هؤلاء المجرمون أعمارهم : لا ينتفعون بحكمة ، ولا يستضيئون بنور ، ولا يستهدون بدين ، حتى يأتهم اليقين ، وينادى عليهم يومئذ (ويل يومئذ للمكذبين) .

قال مؤلفه : فرغت من هذا التفسير بياضا صبيحة يوم الجمعة الواقع في ٩ محرم سنة ١٣٣٨ الموافق لليوم الثالث من أكتوبر سنة ١٩١٩ في مدينة دمشق الشام ، وأنا بها نزيل ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

تم طبع هذا الكتاب في ٢٢ من ربيع الأول سنة ١٣٦٧

(الموافق ٢ من فبراير سنة ١٩٤٨) م

مدير عام المطبعة الأميرية

محمد فاضل